عشر مقابل نصفها في عدوة الاندلس و 17 حماما عوض ستة و 96 كتابا قرآنيا بدل 24 وست مدارس بدل اثنتين (5) .

هذا وان جامع القرويين الذى اسس عام 245 هـ مع شبيهه جامع الاندلس على يد ام البنين واختها مريم الفهرية القيروانيتين لم يكن يثير الانتباه بفن جديد نظرا لعدم اختصاص بنائيه القيروانيين عدا تصميمه الغريب الذي تتوازى بلاطاته مع القبلة على غرار مسجد الشرفاء الادريسي وجامع ابن طولون بالقاهرة وجامعي بعلبك ودمشق وقد اضاف اليه الناصر الاموي عام 345 اي بعد مرور قرن كامل على بنائه اثني عشر بلاطا جديدا وحول المنارة الى مكانها الحالي مغشيا بابها «بصفائح النحاس الاصفر» مع «قبة صغيرة» محلاة بتفاليح ممومة بالذهب» (6) وبذلك انبثقت النواة الاولى للفن الاندلسي المغربي البارز في مسجد قرطبة ومدينتي الزهراء والزاهرة حيث امتزج العنصر السوري بالفارسي والبيزنطي ولعل عهد الناصر الذى ازدهرت فيه الفلاحة والصناعة والتجارة والفنون والعلوم (7) بالاندلس كان عهد تحول وانقلاب في تاريخ الحضارة المغربية التي بدات تتخذ بالعاصمة الادريسية سمات جديدة في شتى المجالات ، تقل مع ذلك روعة وفخامة عن اصولها بقرطبة اذا اعتبرنا المضافات الاموية بجامع القرويين وقد انتشرت بدائع هذا الفن في حواضر ادريسية كالبصرة واصيلا اصبحت تنافس مدينة فاس .

ومن الصعب ان نتعرف على العناصر الحضارية والمصطلحات التي تسربت الى فاس في القرن الثالث الهجري وان كنا نعرف مما كتبه مؤرخون عرب امثال الحميدي صاحب جذوة المقتبس وابن غالب صاحب فرحة الانفس والروض المعطار للحميري ونفح الطيب للمقري الكثير من ذلك بالنسبة للاندلس حيث اكتملت مظاهر المدنية في الادارة والقضاء والشرطة والاقتصاد والصناعة والفلاحة والاجتماع والعمران واول ما يبدو الباحث حتى بالنسبة للامويين هو امتزاج العناصر الحضارية بسبب تداخل الاختصاصات وعدم فصل السلط حيث تندرج كثير من مقومات الدولة ضمن البلاط كالجامع والصدقات والاعشار والاموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة والرسوم الموظفة على بيوع الاسواق والمكوس والمشرف (8) او الامين ودار السكة وخزانة الطب والحكمة واذا ما حاولنا ان نقارن بين مصطلحات هذا العصر والتعابير المغربية دون تحديد لاطارها الزمني فاننا نلاحظ ان اغلبها

---

(5) ذكر ليفي بروفنصال ان الاندلسيين نقلوا معهم الى المغرب فن البستنة وكذلك تجربتهم للحياة الحضرية كالبناء والصناعة التقليدية (فاس قبل الحماية (Fès avant le Protectorat) وقد لاحظ لوطورنو ص (205، انه اذا كان العرب قد نقلوا الى فاس مظاهر نبلهم فان الاندلسيين قد نقلوا رقتهم والقيروانيين مهارتهم واليهود حيلهم والبربر صمودهم » وقد اعطانا الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب في كتابه « بساط العقيق » صورة من حضارة القيروان حيث تحدث عن سماطها (يوجد شبهه بفاس وهو سماط العدول الا انه اصغر منه) وحماماتها العمومية (49حماما) ومصانع الزربية (ذات الطابع القيرواني الخاص رغم اصلها الفارسي) والزجاج والبلور والورق ودار الطراز وكان قاضي القيروان شيخا للاسلام في تونس او قاضيا للجماعة كما في فاس وقد لاحظ الاستاذ التونسي في رسالة بالفرنسية ان الطبقة المتمدنة الغنية من الاندلسيين قد نزلت مدينة تونس واختلطت باهلها وقلدهم الحفصيون الذين هم فرع من الموحدين . وقد ذكر المقري عن ابن غالب (نفح الطيب ج 2 ص 764) ان اهل الاندلس تفرقوا في المغرب الاقصى مع الفريقية فمال اهل البادية الى ما اعتادوه فاستنبطوا المياه وغرسوا الاشجار واحدثوا الارحى الطاحنة بالماء وعلموا اهل البادية اشياء جديدة .
ومعلوم ان الاندلسيين كانوا يحتكرون ببلادهم ـ حسب سرفانطيس مؤلف دون كيشوط ـ تجارة الاغذية ويضعون يدهم على المحاصيل عند نضجها وهم لا يشترون العقارات حفاظا على حرية رواج اموالهم .

(6) زهرة الآس ص 37

(7) ابن حوقل ـ طبعة Goege ج 2 ص 77

(8) هذه الكلمة معناها امين المال وقد استعملها الموحدون (زهرة الآس ص 82) .

متقاربة عدا كلمات لم يعرفها المغرب مثل صاحب البنيان وصاحب البيازرة والاسجال الخراجية وصاحب القطوع (اي الجبايات المرسومة على الاقطاعات) وصاحب الرد (رئيس قسم الشكايات بالقصر الملكي) والكور المجندة والجند المتدون (اي المسجل في الديوان) وفحص السرادق (اي مكان تقام فيه حفلة البروز لتوديع البعوث العسكرية وعقد الالوية) والمهرجان (عيد موسمي منه العنصرة التي تعرف بالمغرب) على ان معظم اسماء الحرف موحدة وكذلك اسماء الازهار والاعشاب والمصنوعات اليدوية وغيرها (9) واستمر هذا الاقتباس طوال قرن ونصف قرن بدافع من بني زيري وخلفاء المنصور ابن ابي عامر الى ان اصبحت الاندلس جزءا من العدوة الجنوبية تحت حكم المرابطين الذين استدعى زعيمهم يوسف بن تاشفين رجال الحرف القرطبيين لاقامة المساجد والسقايات والحمامات والفنادق بفاس (10) ودار الامة بمراكش بينما استعان نجله علي بن يوسف بمهندسي الاندلس لمد قنطرة تنسيفت (11) وقنوات الماء وبناء دار الحجر بمراكش (12) وكان لوحدة افريقية والمغرب الاقصى حينئذ اثرها في ضم الآثار القيروانية الى المدد الاندلسي غير ان من الصعب تمييز الاثرين بوضوح لان جامع القرويين نفسه دخلت فيه مواد اندلسية كالمرمر والآجر والجبس عند تجديده على يد محمد ابن حمدون الاندلسي عام 252 هـ ولم ينس المرابطون الصحراويون اقامة القصبات والحصون في عمرانهم العسكري الذي تعزز بتسوير الحواضر ايام علي بن يوسف بايعاز من ابن رشد الاندلسي واذا اردنا دليلا على مدى انسجام الصحراويين المغاربة مع روح العصر واستساغتهم للفن واساليبه ومصطلحاته فان ذلك يتجلى بوضوح في الروائع الجديدة التي اضيفت لجامع القرويين الذي اتخذ حينذاك شكله الحالي بمنبره المصنوع من « الصندل والابنوس والعناب والعاج » (13) وقبته التي كشفتها الحفريات عام 1952 كانموذج للفن في اروع مجاليه .

وهكذا فالفعلة الاندلسيون الذين انتقلوا الى المغرب في العصر المرابطي كانوا اذن اكثر اختصاصا من سلفهم وان كان عملهم لم يتجاوز نطاق هندسة المساجد وبعض المآثر العسكرية لان بداوة الملثميين وتقشفهم حالا دون تقبل عناصر حضارية طريفة زخرت بها آنذاك قرطبة واشبيلية كموسيقى زرياب الذي احدث في الاندلس ثورة جذرية في العادات فكان يحق « مشرع اسبانيا العربية » ، كما يقول دوزي — وظلت المراة المغربية بدوية الطبع رغم سفورها (14) لم تتفتح للثقافة عدا القليلات امثال زينب النفراوية زوجة يوسف بن تاشفين والبطلة الموحدية فاتو وام هانيء بنت القاضي عبد الحق بن عطية وحفصة الركونية استاذة نساء دار المنصور (15) بل استاذة عصرها (16) وام عمر وبنت ابي مروان بن زهر طبيبة النساء في البلاط الموحدي وورقاء الفاسية الاديبة الشاعرة (17) وزينب القرطولية استاذة القراءات السبع بمراكش وافمات وزينب بنت يوسف ابن عبد المومن التي ربيت بالاندلس فكانت صاحبة الراي في البلاط والشغوف في المجتمع وازاء هذه الندرة من المثقفات في المغرب كانت نساء قرناطة يشهدون الحفلات العامة سافرات ويسبغن بوجودهن عليها روعة وسحرا ويتمتعن بقسط وافر من الحرية الاجتماعية ، كما كان بالربض الشرقي لقرطبة وحده مائة وسبعون امراة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي الذي اتخذ في هذا العصر اشكالا خاصة بالمغرب غير ان الموحدين تفوقوا بالفن الى مستويات راقية بالرغم عما ابدوه في البداية من روح التزمت

---

(9) راجع القائمة الكاملة بهذه المصطلحات في الملحق رقم 3 بكتابنا الصادر في الموضوع والذي نشره معهد البحوث والدراسات العربية بعنوان : (تطور الفكر والحضارة في المغرب الحديث (1969) .

(10) زهرة الآس ص 87 وجذوة الاقتباس ص 27 .

(11) الادريسي — مقتطفات من النزهة — طبع الجزائر 1957 ص 69

(12) الاستبصار — ترجمة Fagnan ص 179

(13) زهرة الآس ص 42

(14) حتى الاميرات لم يكن يتحجبن مما حدا المهدي بن تومرت الى نقد سياسة البلاط الدينية للنيل منه سياسيا .

(15) الدر المنثور في طبقات ربات الحدور ص 165

(16) الاحاطة لابن الخطيب

(17) جذوة الاقتباس ص 335